المعقِد العاشر

ملازمة آداب العلم

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ في كتابه «مدارج السَّالكين»:

«أدبُ المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقِلَّةُ أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما ٱستُجْلِبَ خير الدُّنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا ٱستُجْلِب حرمانهما بمثل قِلَّة الأدب».

والمرء لا يسمو بغير الأدبِ
وإن يكن ذا حَسَبٍ ونسبِ

وإنَّما يصلُح للعلم من تأدَّب بآدابه في نفسه ودرسه، ومع شيخه وقرينه.

قال يوسف بن الحسين: «بالأدب تفهم العلم».

لأنَّ المتأدِّب يُرىٰ أهلًا للعلم فَيُبذلُ له، وقليل الأدب يُعزُّ العلمُ أن يُضيَّعَ عنده.

سأل رجل البُقاعيَّ أن يقرأ عليه، فأذِن له البُقاعيُّ، فجلس

الرجل متربِّعًا، فامتنع البُقاعيُّ من إقرائه، وقال له: «أنت أحوج إلىٰ الأدب منك إلىٰ العلم الذي جئت تطلبه».

ومن هنا كان السَّلف ـ رحمهم الله ـ يهتمُّون بتعلُّم الأدب، كما يهتمُّون بتعلُّم العلم.

قال ابن سيرين ـ رحمه الله ـ: «كانوا يتعلَّمون الهدي كما يتعلَّمون العلم».

بل إنَّ طائفةً منهم يُقدِّمون تعلُّمه علىٰ تعلُّم العلم.

قال مالك بن أنس لفتًى من قريش: «يا ابن أخي، تعلَّمِ الأدب قبل أن تتعلَّمَ العلم».

وكانوا يُظهِرون حاجتهم إليه.

قال مَخْلَد بنُ الحسين لابنِ المبارك يومًا: «نحن إلىٰ كثيرٍ من الأدب أحوج منَّا إلىٰ كثير من العلم».

وكانوا يُوصون به، ويُرشدون إليه.

قال مالكٌ: «كانت أُمِّي تُعَمِّمُني، وتقول لي: اذهبْ إلىٰ ربيعةَ ـ تعني ابنَ عبد الرحمن فقيهَ أهل المدينة في زمنه ـ فتعلَّمْ من أدبه قبل علمه».

وإنما حُرِم كثيرٌ من طلبة العصر العلمَ بتضييع الأدب، فترىٰ

أحدهم متَّكئًا بحضرة شيخه، بل يمدُّ إليه رجليه، ويرفع صوته عنده، ولا يمتنع عن إجابة هاتفه الجوَّال أو غيره، فأيُّ أدبٍ عند هٰؤلاء ينالون به العلم؟!

أشرفَ اللَّيث بن سعدٍ ـ رحمه الله ـ علىٰ أصحاب الحديث، فرأىٰ منهم شيئًا كأنَّه كرهه، فقال: «ما هٰذا؟! أنتم إلىٰ يسيرٍ من الأدب، أحوج منكم إلىٰ كثيرٍ من العلم».

فماذا يقول اللَّيث لو رأىٰ حال كثيرٍ من طلَّاب العلم في هٰذا العصر؟!

المعقِد الحادي عشر

صيانة العلم عمَّا يَشين، ممَّا يُخالف المروءة ويخرِمها

فمن لم يَصُنِ العلمَ لم يَصُنْهُ العلمُ ـ كما قال الشَّافعيُّ ـ ومن أخلَّ بالمروءة بالوقوع فيما يَشين فقد ٱستخفَّ بالعلم، فلم يُعظِّمه ووقع في البَطالة، فتفضي به الحال إلىٰ زوال ٱسم العلم عنه.

قال وهب بن منبِّه ـ رحمه الله ـ: «لا يكون البطَّال من الحكماء».

لا يُـدرِكُ الـعـلـمَ بـطَّـالٌ ولا كَـسِـلٌ
ولا مـلـولٌ ولا مـن يَـألَـفُ الـبَـشَـرا

وجِماع المروءة ـ كما قاله ابن تيميَّة الجدُّ في «المحرَّر»، وتبعه حفيده في بعض فتاويه ـ: «استعمال ما يُجمِّله ويَزِينه، وتجنبُ ما يُدنِّسه ويَشِينه».

قيل لأبي محمَّد سفيانَ بنِ عُيَيْنة: قد ٱستنبطتَ من القرآن كلَّ شيءٍ، فأين المروءة فيه؟ فقال: «في قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ

﴿بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف]؛ ففيه المروءة، وحسن الأدب، ومكارم الأخلاق».

ومِن ألْزَمِ أدبِ النَّفس للطَّالب: تحلِّيه بالمروءة، وما يحمِل عليها، وتنكُّبُه خوارمها التي تخلُّ بها كحلق لحيته؛ فقد عدَّه في خوارم المروءة ابن حجر الهيتميُّ من الشَّافعيَّة، وابنُ عابدين من الحنفيَّة.

أو كثرةِ الالْتفات في الطَّريق، وعدَّه من خوارمها ابنُ شهابٍ الزُّهريُّ، وإبراهيمُ النَّخعيُّ من المتقدِّمين.

أو مدِّ الرِّجلين في مَجْمَعِ النَّاس من غير حاجةٍ ولا ضرورةٍ داعيةٍ، وعدَّه من الخوارم جماعةٌ، منهم أبو بكرٍ الطَّرطوشيُّ من المالكيَّة، وأبو محمَّد ابنُ قدامة، وأبو الوفاء ابنُ عقيل من الحنابلة.

أو صحبةِ الأراذل والفسَّاق والمُجَّان والبطَّالين، وعدَّه من خوارم المروءة جماعةٌ، منهم أبو حامد الغزَّاليُّ، وأبو بكر ابنُ الطَّيِّب من الشَّافعيَّة، والقاضي عياض اليَحصُبيُّ من المالكيَّة.

أو مصارعةِ الأحداث والصِّغار، وعدَّه من الخوارم ابنُ الهُمَام، وابنُ نُجيمٍ من الحنفيَّة.

ومن أخلَّ بمروءته وهو ينتسب إلىٰ العلم، فقد افتضح عند الخاصِّ والعامِّ، ولم يَنَلْ من شرف العلم إلَّا الحطام.